إنه فيما يبدو حالةٌ غامضة كالحياة وكالموت، تستطيع أن تعرف الشيء الكثير عنها إذا أنت نظرت إليها من الخارج؛ أما الباطن، أما الجوهر، فسرٌّمُغلَق. وصاحبُنا يعرف الآن أنه نزل ضيفًا بعض الوقت بالخانكة، ويَذكُر — الآن أيضًا — ماضيَ حياته كما يَذكُره — العُقلاء جميعًا، وكما يعرفحاضره، أما تلك الفترة القصيرة — قصيرةً كانت والحمد لله فيَقِف وعيُه حيال ذكرياتها ذاهلًا حائرًا لا يدري من أمرها شيئًا تطمئنُّ إليه النفس. كانت رحلةً إلى عالمٍ أثيريٍّ عجيب، مليء بالضباب، تتخايل لعينَيه منه وجوهٌ لا تتَّضح ملامحها، كلما حاوَل أن يُسلِّط عليها بصيصًا من نور الذاكرة ولَّت هاربةً فابتلعَتها الظُّلمة. ويجيء أذُنَيه منه أحيانًا ما يُشبِه الهمهمة، وما إن يُرهِف السمع ليميز مواقعها حتى تفرَّ مُتراجِعةً تاركة صمتًا وحَيرة. ضاعت تلك الفترة السحرية بما حفلت من لذة وألم، حتى الذين عاصروا عهدها العجيب قد أسدلوا عليها ستارًا كثيفًا من الصمت والتجاهل لحكمة لا تَخفى، فاندثرت دون أن يُتاح لها مؤرخٌ أمين يُحدِّث بأعاجيبها. تُرى كيف حدثت؟! متى وقعت؟ كيف أدرك الناسأن هذا العقل غدا شيئًا غير العقل، وأن صاحبه أمسفردًا شاذًّا يجب عزله بعيدًا عن الناس كأنه الحيوان المُفترِس؟!

كان إنسانًا هادئًا أخَصُّما يُوصَف به الهدوء المُطلَق. ولعله ذاك ما حبَّب إليه الجمود والكسل، وزهَّده في الناس والنشاط؛ ولذلك عدَل عن مرحلة التعليم في وقتٍ باكر، وأبى أن يعمل مُكتفيًا بدخل لا بأسبه. وكانت لذَّته الكبرى أن يطمئنَّ إلى مجلسٍ مُنعزِل على طوار القهوة فيُشبِّك راحتَيه على رُكبته، ويلبث ساعاتٍ مُتتابِعات جامدًا صامتًا، يُشاهد الرائحين والغادين بطرْفٍ ناعس وجَفنَين ثقيلين، لا يملُّ ولا يتعب ولا يجزع؛ فعلى كرسيِّه من همس الجنون

الطوار كانت حياته ولذَّته. ولكنَّ وراء ذلك المَظهر البليد الساكن حرارةً أو حركةً في قرارة النفس أو الخيال، كان هدوءه شامل الظاهر والباطن، الجسم والعقل، الحواس والخيال، كان تمثالًا من لحم ودم يلوح كأنما يُشاهد الناس وهو بمَعزل عن الحياة جميعًا.

ثم ماذا؟!

حدث في الماء الآسن حركةٌ غريبة فجائية كأنما أُلقيَ فيه بحجر.

كيف؟!

رأى يومًا — إذ هو مُطمئنٌّ إلى كرسيه على الطوار — عُمالًا يملئون الطريق، يرشُّون رملًا أصفر فاقعًا يَسرُّ الناظرين، بين يدَي مَوكبٍ خطير. ولأول مرة في حياته يستثير

دهشتَهشيءٌ فيتساءل: لماذا يرشُّون الرمل؟ ثم قال لنفسه إنه يثور فيَملأ الخياشيم ويؤذي الناس، وهم أنفُسهم يرجعونسراعا فيكنسونه ويلمُّونه، فلماذا يرشُّونه إذَن؟! وربما كان الأمر أتفه من أن يوجب التساؤل أو الحيرة، ولكن تساؤله بدا له كأخطر حقيقة في حياته وقتذاك، فخالَ أنه بصدد مسألة من مسائل الكون الكبرى. ووجد في عملية الرش أولًا، والكنس أخيرًا، والأذى فيما بين هذا وذاك؛ حيرةً أيَّ حيرة، بل أحسَّ ميلًا إلى الضحك، ونادرًا ما كان يفعل، فضحك ضحكًا متواصلًا حتى دمعت عيناه. ولم يكن ضحكه هذا محضانفعال طارئ، فالواقع أنه كان نذير تغيير شامل، خرج به من صمته الرهيب إلى حالٍ جديدة، ومضىيومه حائرًا أوضاحكًا، يُحدِّث نفسه فيقول كالذاهل: يرشُّون فيؤذون ثم يكنسون .. ها ها ها!

وفي صباح اليوم الثاني لم يكن أفاق من حَيرته بعد. ووقف أمام المرآة يُهيِّئ من شأنه، فوقَعَت عيناه على ربطة رقبته، وسُرعانَ ما أدركَته حَيرةٌ جديدة، فتساءل: لماذا يربط رقبته على هذا النحو؟ ما فائدة هذه الربطة؟ لماذا نَشقُّ على أنفُسنا في اختيار لونها وانتقاء مادتها؟ وما يدري إلا وهو يضحك كما ضحك بالأمس، وجعل يرنو إلى ربطة الرقبة بحَيرة ودهشة، ومضىيُقلِّب عينَيه في أجزاء من ملابسة جميعًا بإنكار وغرابة. ما حكمةُ تكفين أنفُسنا على هذا الحال المُضحِك؟ لماذا لا نخلع هذه الثياب ونطرحها أرضًا؟ لماذا لا نبدو كما سوَّانا الله؟ بيدَ أنه لم يتوقَّف عن ارتداء ملابسه حتى انتهى منها، وغادَر البيت كعادته.